الهجاء السياسي في الأندلس زمن الدولة العامرية

(٣٦٦ هـ - ٣٩٩ هـ)

د . فورار امحمد بن لخضر
جامعة محمد خيضر . بسكرة .
الجـــزائـــر

ملخص :

برز الهجاء السياسي في الأندلس - زمن الدولة العامرية - نتيجة تقلب الأحوال السياسية واضطرابها ، حيث يوجد حاجب مستبد ، بلغ نفوذه بمساعدة أم الخليفة المعطل إلى الانفراد بالسلطة، ومن بعده سبطاه.ووضع كهذا أنطق بعض الشعراء - بما يعبر عن سخط وتبرم بني أمية وأتباعهم - في مقطوعات وأبيات شعرية، هاجموا فيها سياستهم ، ونقدوا تصرفاتهم ، في هذا اللون الفني - المجهول القائل غالبا - الجارح والبذيء ، بلغة شعبية بسيطة ، ليضمن لهذا الشعر الذيوع والانتشار على ألسنة العامة .

Résumé

L'instabilité et les changements politiques ont donné naissances à la satire politique en Andalousie à l'époque de l'état d'Al-Amiria. Ces changements se découlent d'un chambellan autoritaire, dont son pouvoir d'influence est installé en complicité avec la mère du Kalife (califat). La continuité de ce pouvoir autocratique, est assurée par les successeurs; ses deux petits-fils.

Cette situation a incité quelques poètes à écrire des poèmes où ils ont exprimé leur indignation et mécontentement, et ont éprouvé de la lassitude d'omeyyade et leur partisans. Ils ont attaqué aussi, la politique en vigueur, et y ont critiqué le comportement des gouverneurs.

Les poèmes, de ce genre poétique, sont écrits et produits par des poètes; en général inconnus. La structure thématique est composée de propos désobligeants et obscènes, et afin de divulguer, de propager ces poèmes et de mettre cette poésie à la portée de tous les membres de la société. les poètes ont utilisé une langue simple et populaire.

الهجاء السياسي في الأندلس زمن الدولة العامرية (٣٦٦ هـ - ٣٩٩ هـ)

دكتور
فورار امحمد بن لخضر
جامعة محمد خيضر بسكرة الجزائر

الهجاء

فن من فنون الأدب الرفيعة في الأدب العربي ، وقد أشار النقاد القدماء إلى رسوخ هذا الفن وثباته[١]. وبمعناه الأدبي هو فن من فنون القول ((يصور عاطفة الغضب والاحتقار والاستهزاء ، وسواء في ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق أو المذاهب))[٢].

إن هذا التعريف للهجاء - كما سلف - يشمل الشعر والنثر ، وهو صادر عن العاطفة شأنه في ذلك شأن فنون الشعر الغنائي . وهو فن قديم في الأدب العربي ، ولكنه تطور تطورا كبيرا منذ العصر الجاهلي حتى العصر العباسي ، ونفس الشيء في الأندلس ؛ فقد شهد

---

(١) انظر توضيح ذلك : ابن سلام . طبقات فحول الشعراء . تحقيق محمود شاكر . دار المعارف . مصر . ص ٣٧٨ - ٣٧٩، قدامة ابن جعفر . نقد الشعر . تحقيق مصطفى كمال . مطبعة الخانجي . مصر . ص . ٣٥ ، نقد النثر . دار الكتب العلمية . بيروت . ١٩٨٢. ١٨ ، المرزباني . الموشح . تحقيق علي محمد البخاري . دار نهضة مصر . ١٩٦٥ . ص ١٩٧ - ١٩٨ ، ابن رشيق . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تحقيق محمد محي الدين . دار الجيل . بيروت . ط١ . ١٩٨٠ . ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٢) محمد محمد حسين . الهجاء والهجاءون في الجاهلية . المطبعة النموذجية . مصر . ط ١ . ١٩٤٧ . ص ١٢ .

تطـورا في معانيه وألفاظه وصوره ، زمن الدولة العامرية ، بحكـم تغير الدوافع إليه وتطور الذوق العـام ، إلا أن نقـاد الأنـدلس قـد سيطرت عليهم النزعة الخلقية ، والاتجـاه المحـافظ علـى النقـد الأندلسي ، فنفروا من الهجاء ، وصانوا كتبهم منه ، ولم يستجيـزوا روايته مما حجب عنا كثيرا مما قيل فيه، فهذا ابن حـزم يرى أنـه ينبغي أن يتجنـب من الشعر الهجاء[1] . وتحكمت النزعة المحافظة نفسها في نظرة ابن بسام للهجاء فهو يصرح بقوله : ((صنت كتابي عن شين الهجاء ، وأكبرته أن يكون ميدانا للسفهاء)) [2]، ولكن في نفس الوقت يؤثر الهجاء الذي يميل إلى التعريض والتلميح بدليل أنه يورد أبياتا يصفها بأنها ((من مليح التعـريض)) [3]، لا ضـرورة لذكرها لأنها لا تتعلق بموضوعنا .

وكان عبد الواحد المراكشـي ممـن أقصـوا الهجـاء مـن مؤلفاتهم[4]، غير أن هـذه النزعة لم تمنع من رواج شعر الهجاء ، وامتد إلى النساء فلهجن به[5]. كما أن العوامـل التـي أدت إلـى نيوعه كانت أقوى من هذه النزعة، والمجتمع الأندلسي - بتكوينـه السياسي والاجتماعي والحضاري - كان مهيئا لتقبل الهجاء .

---

(١) فوزي سعد عيسى . الهجاء في الأدب الأندلسي . دار المعارف . مصر . ص ٢٤ ، نقلا عن ابن حزم . رسائل ابن حزم (رسـالة مراتب العلوم) . ٦٥ - ٦٧ .

(٢) ابن بسام . الذخيرة . تحقيق إحسان عباس. الدار العربية للكتاب. ليبيا - تونس . ط ١ . ١٩٧٩ . ١/١ : ٥٤٤ .

(٣) ابن بسام . المصدر نفسه . ١/١ : ٥٤٦ .

(٤) انظر : المراكشي . المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان . القاهرة . ١٩٦٠ . ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

(٥) سعد بوفلاقة . الشعر النسوي في الأندلس . ديـوان المطبوعـات الجامعية . الجزائر . ١٩٩٥ . ص ٥٠ - ٥١ .

ورغم صيانة النقاد كتبهم من الهجاء لما فيه من إقذاع وفحش - كما سنرى - إلا أنه كان يحفظ ويدرس في جميع بلاد المغرب والأندلس[1] ، ومنها تقلب الأحوال السياسية واضطرابها واستبداد المنصور ابن أبي عامر وابنيه بالسلطة .

ومن هذه العوامل ما يرد إلى عوامل ذاتية أو شخصية ، تتمثل في فساد العلاقة بين الشاعر والحاكم ، كأن يبعده هذا الأخير عن دائرة اهتمامه، ويضن عليه بالعطاء، كما حدث للرمادي[2]

---

(١) انظر : المراكشي . المعجب . ٣٧٠ - ٣٧٤ .

(٢) هو يوسف بن هارون الرمادي ، أبو عمر ، شاعر مشهور . أدرك الفتنة وتوفي سنة ٤٠٣ هـ . انظر ترجمته : الحميدي . جذوة المقتبس . ٣٩٠ ، الضبي . بغية الملتمس . دار الكتاب العربي . القاهرة . ١٩٦٧ . ص ٤٩٣ ، ابن بشكوال . الصلة . الدار المصرية للتاليف والترجمة والنشر القاهرة . ١٩٦٦. ص . ٦٧٤ ، ابن حيان القرطبي . المقتبس في أخبار بلد الأندلس . تحقيق عبد الرحمن علي الحجي . دار الثقافة . بيروت . ١٩٦٥ . ص ٥٦ ، ابن سعيد . المغرب في حلي المغرب . تحقيق شوقي ضيف. دار المعارف . مصر . ط ٣ . ١٩٧٨ . ج ١. ص٣٩٢ ، ابن خلكان . وفيات الأعيان . تحقيق إحسان عباس . دار الثقافة. بيروت . ١٩٦٨ . ج ٧ ص ٢٢٥ ، المقري . نفح الطيب. دار صادر . بيروت . ١٩٦٨ . ج ١ ص ٢٩٦ ، ابن دحيه . المطرب من أشعار أهل المغرب . تحقيق إبراهيم الأبياري . المطبعة الأميرية . القاهرة . ١٩٥٤ . ص ٤ ، ياقوت الحموي. معجم الأدباء . تحقيق أحمد فريد الرفاعي . مكتبة عيسى البابي الحلبي . القاهرة . ١٩٣٦ . ج ٢ . ص ٦٢، الزركلي. الأعلام . دار العلم للملايين . بيروت . ج ٣ . ص ٨٧ ، الرمادي. شعره . جمع ماهر زهير جرار . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . ط ١ . ١٩٨٠ . فورار امحمد . أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي الأندلسي (٣٠٣ هـ - ٤٠٣ هـ) دراسة في سيرته وشعره في السجن. مجلة فكر وإبداع. دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع . القاهرة . الجزء التاسع والثلاثون . أفريل ٢٠٠٧ .

من قبل المنصور بن أبي عامر[1] لأنه كان مشايعا

(١) محمد بن عبد الله بن أبي عامر ، الملقب بالمنصور معافري قحطاني ، أصله من الجزيرة الخضراء قرب جبل طارق ، وهناك ولد ثم قدم إلى قرطبة شابا ، وبها درس وتثقف ، وتقرب من الحكم المستنصر حتى ولاه عدة مناصب ، وغدا من رجالات الدولة العظام . وعند وفاة الحكم سنة ٣٦٦ هـ ، تسلم المنصور زمام الأمور وإن بقي المؤيد الخليفة بالاسم فقط . غزا - كما تقول الروايات - سبعا وخمسين غزوة ، ومات بمدينة سالم سنة ٣٩٢ هجرية على أغلب الأقوال ، وباني مدينة الزاهرة له ولوزرائه . انظر ترجمته في : ابن حزم . جمهرة أنساب العرب . تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف . القاهرة . ١٩٦٢ . ص ٤١٩ - ٤١٨ ، الحميدي . جذوة المقتبس . ١٣٢ - ١٣١ ، ابن حيان . المقتبس في أخبار بلد الأندلس . ٤١-٤٢ ، ابن بسام . الذخيرة . ١/٤ : ٥٦ ، الضبي. بغية الملتمس. ١١٧ - ١١٥، ابن عذارى . البيان المغرب . تحقيق . خ . س . كولان . وليفي بروفنسال . دار الثقافة . بيروت . ط ٤ . ١٩٨٣ . . ج ٢ ص ٢٥٦ - ٢٧٦ ، ابن سعيد . المغرب . ١ : ١٩٩ - ٢٠٣ ، المراكشي . المعجب . ٧٢ ، ابن الأبار . الحلة السيراء . تحقيق حسين مؤنس . الشركة العربية للطباعة والنشر. ط ١ . ١٩٦٣ . ج١ ص ٢٦٨ - ٢٧٧ ، ابن الأثير . الكامل في التاريخ. دار الطباعة المنيرة. ١٣٥٧هـ . ج ١١ ص ٢٨٥ ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . تحقيق ليفي بروفنسال . دار المكشوف . لبنان . ط ٢ . ١٩٥٦ . ص ٥٩ . ابن خلدون . التاريخ . تحقيق عبد الكريم وحسن الزين . دار الكتاب اللبناني . بيروت . ١٩٦٨ . ق٤ ج ١ ص٢١٨ - ٢٢١ ، المقري . نفح الطيب . ١ : ٣٩٩ ، ابن العماد . شذرات الذهب في أخبار من ذهب . تحقيق لجنة إحياء التراث العربي . دار الآفاق الجديدة . بيروت . ج ٣ ص ١٤٤ ، فورار امحمد . الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية . (رسالة ماجستير) إشراف الدكتور جودت الركابي . معهد اللغة العربية وآدابها . جامعة قسنطينة . ١٩٩٥ . ص ٧-٤٢ .

للمصحفي[1] وأغراه هذا بهجائه ، فنال الرمادي عقوبة ونكالا من قبل المنصور بن أبي عامر[2].

ومن خلال الهجاء الأندلسي تطالعنا عدة اتجاهات لهذا الفن ، وفيما يلي ذكر لأهم هذه الاتجاهات ، وبعض نماذج مما قيل فيه .

لعل موضوعات الهجاء البارزة ، في عهد الدولة العامرية ، وجود الهجاء السياسي والهجاء الاجتماعي ، ولكننا سنركز على الهجاء السياسي اعتمادا على المقطوعات التي عثرنا عليها في ثنايا المصادر التي اهتمت بالأدب شعره ونثره . ويعرفه فوزي سعد عيسى بقوله : ((الهجاء السياسي هو كل ما يتصل بشؤون الحكم

---

(١) أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز بن عبد الله بن كسيلة الحاجب المصحفي ، من بربر بلنسية ، أديب عمل كاتبا أيام الناصر لدين الله، وتقلد خطة الوزارة إبان خلافة الحكم المستنصر، ولما آلت الخلافة إلى هشام المؤيد ، تصرف في أمور الدولة ، لكن المنصور محمد بن أبي عامر صرفه عن الحجابة وأودعه السجن ، واستمرت البلية عليه سنين إلى أن مات سنة ٣٧٢ هـ . انظر ترجمته في : الحميدي . جذوة المقتبس . ٢٨٩ ، وفيها المعروف بابن المصحفي ، ابن خاقان . مطمح الأنفس. تحقيق محمد علي شوابكة . مؤسسة الرسالة . بيروت . ط١ . ١٩٨٣ . ص ١٥٣ – ١٦٦ ، ابن بسام. الذخيرة . ١/٤ : ٥٨ ، الضبي . بغية الملتمس . ٢٥٧ ، المراكشي . المعجب . ٦٢ ، ابن الأبار . الحلة السيراء . ١ :٢٥٧ – ٢٦٧ ، ابن سعيد. المغرب . ١٩٥ – ١٩٦ ، ورايات المبرزين وغايات المميزين . تحقيق النعمان عبد المتعالي . لجنة إحياء التراث الإسلامي . القاهرة. ١٩٧٣ . ص٦٩ ، ابن عذارى . البيان المغرب . ٢ : ٢٦٧ ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . ٦٠ – ٦١ ، المقري . نفح الطيب . ١ : ٤٠٢ ، الحاجب المصحفي الأندلسي . ما تبقى من شعره . جمع وتقديم فورار امحمد . مجلة صحيفة دار العلوم . القاهرة . عدد ٢٤ . ديسمبر ٢٠٠٥ .

(٢) المراكشي . المعجب . ٧٠ –٧١ .

وأمور السياسة وفيه يصدر الشاعر عن عصبية للوطن أو الإقليم أو القبيلة أو الحزن أو الدين))[1].

بهذا التعريف للهجاء السياسي ، واستقراء للمقطوعات الشعرية التي تتصل بهذا الفن ، يتضح لنا أنه هو أكثر الاتجاهات رواجا في الأندلس – زمن الدولة العامرية – وقد تباينت صوره إذ توزعت بين هجاء الخلفاء والحجاب والوزراء والقضاة .

والملاحظ أن أغلب مقطوعات هذا النوع من الهجاء لا تنسب إلى قائل بعينه ، وذلك لخشية الشعراء من بطش الحكام بصفة عامة والمنصور بن أبي عامر بصفة خاصة .

ورغم تشدد الحكام تجاه شعراء الهجاء ، إلا أنه لم يؤد إلى تكميم أفواههم أو إسكات ألسنتهم عن المجاهرة بمساوئهم ومثالبهم ؛ فعبروا عن ضيقهم بهم ، وكشفوا عن أوجه الفساد في سياستهم ، وتشبثهم بكرسي الحكم على حساب مصالح الرعية .

وفي فترة حكم بني عامر نجد بعض شعرائها قد هاجموا سياستهم وانتقدوا تصرفاتهم ، فكان الهجاء السياسي – كما تقدم– من الموضوعات التي برزت في فترة حكمهم ، وكان ذلك نتيجة لعدم سلامة الوضع السياسي في نظر كثير من الأندلسيين ، حيث يوجد خليفة معطل وهو هشام المؤيد بالله[2]، هذا إلى جانب نفوذ أمه

---

(١) فوزي سعد عيسى . الهجاء في الأدب الأندلسي . ٣٧ .

(٢) هو هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر لدين الله، وأمه السيدة (صبح) البشكنسية ، ولد سنة ٣٥٤ هـ ، وبويع له سنة ٣٦٥ بعهد من أبيه ، ودام حكمه إلى سنة ٣٩٩ هـ . انظر أخباره : ابن عذارى . البيان المغرب . ٢ : ٢٥٣ ، ٣ : ٥٠ – ٥١ ، ابن بسام . الذخيرة . ١/٤ : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . ١٠٩ ، المقري . نفح الطيب . ١ : ٤٢٦ . محمد عبد الله عنان . دولة الإسلام في الأندلس . الهيئة المصرية العامة

السيدة صبح[1]، ووصول المنصور بن أبي عامر عن طريقهما إلى كثير مما أراد بسيطرته واستبداده .

ووضع كهذا من شأنه أن يثير حيرة وقلق بعض الشعراء ، وينطقهم بما يعبر عن سخط وتبرم بني أمية وأتباعهم ، ومن ذلك قول إبراهيم بن إدريس[2] ينقم على المنصور ذلك الفعل، ويحرض

للكتاب . القاهرة . ٢٠٠٣ . ج ٢ ص ٥١٦ ، فوزار امحمد . الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية . ١١ ، ١٤ - ١٦ ، ٥٠ .

(١) ظهرت الجارية (صبح) البشكنسية - والتي لا نعرف شيئا عن نشأتها وحياتها الأولى - في بلاط قرطبة ، وشغف بها الخليفة الحكم المستنصر بالله، وأغدق عليها حبه وعطفه وسماها (بجعفر)، ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأي ، حينما رزق منها بولده عبد الرحمن ، ثم هشام . بالمولودين أضحت ملكة حقيقية ، وتتمتع في القصر بما يشبه مركز الملكة الشرعية ، وتوصف ((بالسيدة صبح أم هشام بن الحكم)) أو (بالسلطانة صبح) . غير أنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية و (أم ولد) ، دون تغيير في مركزها الشرعي . لبثت ردحا طويلا من الزمن تسيطر على خلافة قرطبة وتشترك في تدبير أمورها ، في السلم والحرب ، مع أعظم رجالات الأندلس ، ومنهم المنصور بن أبي عامر ، قضى على كل نفوذها ، وبقيت كذلك إلى أن أدركتها المنية في عهد ابنها هشام المؤيد . انظر أخبارها في : ابن عذارى . المصدر نفسه ٢: ٢٣٥، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ابن بسام . المصدر نفسه . ١/٤ : ٧٠ ، ٧٢ ، ابن الخطيب . المصدر نفسه. ٧٧ ، المراكشي . المعجب . ٧٤ ، المقري . نفح الطيب . ٣ : ٩٢ ، ٩٣ ، محمد عبد الله عنان . المرجع نفسه . ٢ : ٥٢٠ - ٥٢٥ ، رينهرت دوزي . المسلمون في الأندلس. ترجمة حسن حبشي . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ١٩٩٤ . ج ٢ ص ٧٤، ١٣٠ ، ١٣٧ .

(٢) هو إبراهيم بن إدريس العلوي الحسني ، كان أديبا شاعرا ، أصله من المغرب ، وسكن قرطبة زمن المنصور بن أبي عامر - ولما غدر بكبير الأدارسة الحسن بن كنون ، بعد أمان ، ولم يمض أمانه وقتله سنة ٣٧٥ هـ - ثم سير أهل ابن كنون عن قرطبة ومنهم

بني أمية عليه[1]:

ابني امية أين أقمار الدجى ∴ منكم ؟ و أين نجومها و الكوكبُ؟
غابت أسود منكم عن غابها ∴ فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

ومن ذلك قول بعضهم على لسان الخليفة هشام في أبيات شعرية تمتزج بروح انتقادية قوية مستنكرا استبداد المنصور بالأمر دونه[2]:

أليس من العجائب أن مثلي ∴ يرى ما قل ممتنعا عليه
وثملك باسمه الدنيا جميعا ∴ وما من ذاك شيء في يديه

وفي ذلك تعبير عن المأساة التي يعانيها، وإبراز لعجزه التام أمام استبداد وهيمنة المنصور ، وتبدو المرارة شديدة في نفس خليفة لا يملك من أمرها إلا اسمها . وتميزت بعض تلك الأشعار بفحش شديد ، ومنها قول بعض الشعراء ينتقد دولة المنصور ويرسمها كلها بالفساد ، ويقذفه بأفظع التهم ، فيقول[3]:

الشاعر. انظر ترجمته في: ابن الأبار. الحلة السيراء . ١ :٢٢٦ ، ابن عذارى . المصدر نفسه . ٢ : ٢٨١ ، أحمد السلاوي . الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى. طبعة القاهرة. ١٨٩٤ . ج ١ ص٨٩ ، مؤلف مجهول كان حيا (سنة ٧١٢ هـ) . نبذة تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب (مفاخر البربر) . تحقيق ليفي بروفنسال . الرباط . ١٩٣٤ . ص ٨ وما بعدها .

(١) ابن الأبار . المصدر نفسه . ١ : ٢٢٧ ، مؤلف مجهول . المصدر نفسه . ٢١ . ابن عذارى . المصدر نفسه . ٢ : ٢٨١، المقري . نفح الطيب . ١ : ٥٩١ . وردت هذه الأبيات نفسها في المصدرين الأخيرين ولكن دون ذكر القائل .

(٢) ابن عذارى.البيان المغرب . ٢ : ٢٨٠ . في معرض حديثه عن أحداث ٣٧١ هـ وهي السنة التي تسمى ابن أبي عامر بالمنصور .

(٣) ابن عذارى.المصدر نفسه ٢ : ٢٨٠ ، فقد أورد لفظة يحضر بدلا من يلعب التي وردت عند المقري والتي أثبتناها.نفح الطيب . ٦٠٢/١ واللفظة المحذوفة نابية ويمكن فهمها من السياق والقافية.

اقترب الوعدُ وحان الهلاكْ ∴ وكلُّ ما تحذره قد أتاكْ
خليفة يلعب في مكتب ∴ وأمه حبلى وقاض .....

والشاعر في هذا الهجاء كشف الواقع وعرّاه ، إذ تناول الخليفة هشام المؤيد لأنه كان صغير السن ، ويعرّض بأمه السيدة صبح ، وكان الأعداء يتهمون بها المنصور - كما سبق - ولم ينج القاضي ابن السليم من لسان الشاعر ، فرماه هو الآخر بهذه التهمة الشنيعة .

ومن هذه الأشعار أيضا نماذج يلاحظ فيها تحريض للأمويين على المنصور ، وهي صادرة عن إبراهيم بن إدريس أو عن بعض الأدارسة من أعدائه - كما سبق - فقال الشاعر ، أو قيل على لسانهم في تصوير المصاب الذي حل بهم ، وتضخيم وقعه عليهم حتى ضاقت بهم السبل والمنافذ ، بعد أن شُردوا ونكبوا على يديه[1]:

فيما أرى عجب لما يتعجب ∴ جلت مصيبتنا وضاق المذهبْ

ولم يكتف الشاعر ، بالتعجب من حالهم بل كانت الصدمة قوية حتى أنهم لم يصدقوا وكأنهم في حلم[2]:

إني لأكذب مقلتي فيما أرى ∴ حتى أقولَ غلطتْ فيما أحسب

ويستغل الشاعر هذه المصيبة التي حلت بالقوم وأذهلتهم فيتجه إلى الأمويين باعتبارهم الضحية الأولى ، يثير حفيظتهم ، ويحرضهم ليهبوا لاستعادة سلطتهم ، ويمزج ذلك بهجاء مقذع لأبن أبي عامر ، ينصب بالدرجة الأولى على صفات جسدية خلقية فيصفه بالأحدب ، ويشبهه بالقرد ، رغبة في تشويهه وتنفير القوم منه[3]:

أيكون حيا من أمية واحد ∴ ويسوس ضخم الملك هذا الأحدبْ

---

(١) ابن الأبار . الحلة السيراء . ١ : ٢٢٧ ، ابن عذارى . المصدر نفسه . ٢ : ٢٨١ ، مؤلف مجهول . مفاخر البربر . ٢١ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .

تمشي عساكرهم حوالي هـودج ∴ أعـواده فيهـنّ قـرد أشهـب
أبني أمية أين أقمار الدجـى ∴ مـنكم ؟ ومـا لوجوهها تتغيـب

وقد تظهر النقمة واضحة في هذه الأبيات .

وقد نال المنصور من منافسه المصحفي – كما سلف – النصيب الأوفر بسبب سلوكه السياسي والمعادي تجاهه ، فقال المصحفي مشيرا إلى فضله ، ومقابلة ذلك بالنكران والجود ، ويعده خبيث الأصل لأنه لو كان كريما لتكرم[1]:

غرستْ قضيبا خلقه عودَ كرمة ∴ وكنت عليه في الحوادث قيّما
وأكرمه دهري فيزداد خبثه ∴ ولو كان من أصل كريم تكرّما

وحين سلط عليه المنصور ، واثقا الضاغط[2] لتعذيبه ، قال يحذره – بعد استعطاف – من تقلب الزمان مقارنا بين حاله في حاضره المرير الذي يجد فيه نفسه يخاطب ملكرا لئيما ويتذلل إليه ، وبين ماضيه بما فيه من عزة وكرامة ومهابة[3]:

لا تأمننّ من الزمان تقلبا ∴ إن الزمان بأهله يتقلب
ولقد أراني والليوث تخافني ∴ فأخافني من بعد ذاك الثعلب
حسب الكريم مذلة ومهانة ∴ ألا يزال إلى لئيم يطلب

وتعرض المظفر عبد الملك بن أبي عامر[4] بدوره للهجاء استنكارا لبعض تصرفاته ، ومن ذلك نجد الشاعر عبد الله بن عمر

---

(١) المقري . نفح الطيب . ١ : ٦٠٣ .
(٢) الضاغط : الرقيب والأمين على الشيء .
(٣) ابن خاقان . مطمح لأنفس . ١٦٤ ، المقري . نفح الطيب . ١/٤٢١ – ٤٢٢ .
(٤) هو أبومروان عبد الملك المظفر بالله بن المنصور بن أبي عامر، ولد بقرطبة سنة ٣٦٤ هـ ، وأمه حرة تدعى (الذلفاء) . تقلد عبد الملك الحجابة بعد أبيه سنة ٣٩٢ هـ ، وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، ورث كثيرا من صفات أبيه ، واستوسق له الأمر واجتمع الناس على حبه لعدله وإنسانيته وحمايته للشرع ، وسهره على رعيته ، ونصرته للمظلوم وجهاده في سبيل الدين . غزا أكثر من سبع غزوات كللت بالنصر جميعها، وآخرها كان قافلا عنها،

بن أبي عامر أبو حفص يذمه بسبب زواج رأى فيه ما لا يرضي الله، قال في تعبير سهل بسيط[1]:

عريـــي مُـــزوّج ∴ عبـــدة بنـــت أختـــه
قبّـــح الله فعـــل ذا ∴ ورمـــاه بمقتـــه

ولم يسلم عبد الرحمن شنجول بن إبي عامر[2] من الهجاء والانتقاد رغم قصر مدته ، ولعل سعيه لولاية العهد كان فاتحة تفجير النقمة عليه بشكل علني ، ولم يقدر عواقب مثل هذا التصرف الذي لم يقدم أبوه المنصور نفسه عليه لأنه كان يدرك مدى خطورتها[3] ، ولا

فأدركته المنية سنة ٣٩٩ هـ . انظر ترجمته : ابن عذارى . البيان المغرب. ٣ : ٣ ، ١٣ – ١٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، المراكشي . المعجب. ٧٨ ، ابن بسام . الذخيرة . ١/٤ : ٧٤ – ٧٥ ، ٧٨ ، ابن سعيد . المغرب. ١: ٢١٢، ابن الخطيب. أعمال الأعلام. ٨١ – ٨٢، ٨٣، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٨ – ٨٩، السلاوي. الاستقصا. ١ : ٩٤ – ٩٥ .

(١) ابن الأبار . الحلة السيراء . ١ : ٢٨٧ .

(٢) خلف المظفر عبد الملك بعد وفاته أخاه في الحجابة عبد الرحمن بن المنصور الملقب منذ حداثته بـ (شنجول) ، وشنجول تصغير (لشانجة) ، وقد لقب عبد الرحمن بهذا اللقب بسبب أمه (عبدة) بنت (شانجة) النصراني ملك (بنبلونة) ، أهداها للمنصور بن أبي عامر فتزوجها ، وحسن إسلامها ، وكانت من خيرات نسائه ، دينا متينا ، وحسبا أصيلا ، وكانت تدعوه بـ (شنجول) تذكرا منها لاسم أبيها و لشبهه به . كان شنجول فاسقا مشهورا ، أساء التصرف تجاه الرعية ، أخذ أموالهم ، ونسب إليهم أباطيل القول والفعل ، حتى قلق الناس به وأبغضوه في الله . وفتح باب الفتنة العظمى بانتزاعه ولاية العهد من الخليفة هشام ، فنقم عليه الأمويون والأندلسيون ، ولقي بسبب ذلك حتفه وانقراض دولته سنة ٣٩٩ هـ . انظر أخباره في : ابن عذارى . المصدر نفسه . ٣ : ٣٨ – ٣٩ ، ٤٣ – ٤٦ ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . ٦٦ ، ٦٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ابن سعيد . المصدر نفسه . ٢: ٢١٣ ، المقري . نفح الطيب . ١ : ٤٠٥ ، ٤٢٤ – ٤٢٦ ، ابن خلدون . التاريخ . ٤ : ٢٢٣ .

(٣) المقري . المصدر نفسه . ١ : ٥٠٤ .

أخوه عبد الملك المظفر ، رغم أعمالهما العظيمة ومآثرهما العديدة ، وإمكانياتهما المتوفرة في الظفر بولاية العهد[١] ، ذكر ابن حيان ((وقد تقدم القول في سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة ، عجرفية من غير تأويل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيد الشيطان ، وغرَّته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة ، لم يشاور فيها نصيحا ، ولا فكر في عاقبة ، بل جبرها بالعجلة))[٢] .

لقد كان شنجول جاهلا بما أوصى به أبوه المنصور من قبل أخاه عبد الملك ، وطلب من الخليفة هشام أن يعهد إليه بولاية العهد فوافقه[٣] ، وكتب عهدا بذلك مضمونه أن الخليفة لم يجد من هو أصلح لولاية العهد بعده من هذا القحطاني عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر[٤] ، هذا الذي جاء فيه الأثر عن النبي (ﷺ) ((لا تقوم الساعة ، حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه))[٥] .

وقد صور الشعر جانبا من حقيقة تعيين شنجول لولاية العهد ، فهو لم يكن رغبة شعبية ، وإنما التعيين شاءته القدرة الإلهية ، ونفذه الخليفة هشام باعتباره ظلا له على الأرض فهذا زيادة الله الضبي[٦] ، يقول[٧] :

تخيَّر الله والسلطان للأمم ∴ ولىَّ عهدٍ براه الله من كرم

---

(١) ابن بسام . الذخيرة . ١/٤ : ٧٦ – ٧٧ .
(٢) ابن الخطيب . أعمال الأعلام . ٩١ .
(٣) ابن عذارى . البيان المغرب . ٣ : ٣٣٨ ، ابن سعيد . المغرب . ١ : ٢١٣ .
(٤) ابن عذارى . المصدر نفسه . ٣ : ٤٤ – ٤٦ ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام . ٩١ : ٩٣ .
(٥) ابن عذارى . المصدر نفسه . ٣ : ٤٥ ، ابن الخطيب . المصدر نفسه . ٩٢ .
(٦) لم نجد ترجمة له .
(٧) ابن الخطيب . أعمال الأعلام . ٩٤ .

ونجد الشاعر نفسه، يبرر تقديم شنجول للخلافة ، بالنظر إلى الواقع ، وبالرجوع إلى ما تقدم من أقوال. والخليفة هشام نفسه، فتش عن مقتدر من بني مروان لولاية العهد ، فلم يجد[1] :

فالله يشهد للمؤيد أنه ∴ قد حاط أمّة أحمد منه بقا
واحلّهم في باذخٍ ممتنع ∴ صعبٍ حواشيه عسير الملتقا
أمسى يفتّش قومه وعشيره ∴ شفًّا عليها و الحميم الألصقا
ورجا بأنْ يُلفي إذا ما فتّشوا ∴ في عبد شمس للخلافة مَعْلما
فرآهم متخلّفين عن العلا ∴ لا يصلحون لأن يسوسوا جَرْدَقا
فرمى إلى المأمون أمر جميعهم ∴ إذ لم يزل حَدِباً عليها مُشفقا
قالوا إذا ضعفت قريشٌ أخّرت ∴ و أبو هُريرة قال ذاك مُصدّقا
و أتى عن الفاروق أكرم أسوةٍ ∴ خبرٌ غدا للخافقين مُطبّقا
لو أنّ فيكم سالما قدّمْتُه ∴ لِيَلي الأمور مَغربا و مشرقا

لقد هزّ هذا الأمر الدولة الأموية هزّا عنيفا ، وعزّ على المضريين أن ينتقل الملك إلى اليمنيين، وأن تنقل الخلافة عن قريش، فانبعثت العصبية العربية القديمة ، وبلغ سخط الأندلسيين ذروته ، ونقدوا أحمد بن برد[2] الذي أنشأ صيغة البيعة ، ومن الشهود القاضي أحمد بن ذكوان [3] اللذين جدّا في ذلك السعي

---

(١) ابن الخطيب . المصدر نفسه . ٩٥ – ٩٦ .

(٢) أحمد بن برد أبو حفص الكاتب . كان ذا حظ وافر من البلاغة والأدب والشعر . وقد شارك في السياسة ، وخدم المنصور بن أبي عامر وابنيه عبد الملك المظفر ، وعبد الرحمن شنجول ، وعلا أمره في أيام هذا الأخير حتى وصل إلى الوزارة ، وهو كاتب نسخة ولاية العهد . توفي سنة ٤١٨ هـ . انظر ترجمته : الحميدي . جذوة المقتبس . ١٨٨ ، ابن بسام . الذخيرة . ١/١ : ١٠٣ ، الضبي . بغية الملتمس . ١٧٢ ، ابن عذارى . البيان المغرب . ٣ : ٤ . ابن سعيد . المغرب . ١ : ٨٦ وما بعدها .

(٣) أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان الأموي ، قاضي الجماعة على أيام المنصور وابنيه ، وهو أول الموقعين على الوثيقة التي استصدرها عبد الرحمن شنجول بتوليته العهد للخليفة هشام المؤيد ، واستوزره عبد الرحمن ، وتسمى بقاضي القضاة ،

الخبيث[1]، وتغنوا جميعهم بمثل هذا الشعر الذي من نظم الشاعر ابن أبي يزيد المصري[2]، يقول[3] :

إن ابن ذكوان وابن برد ∴ قد ناقضا الدين بعد عمد
وعاندا الحق إذ أقاما ∴ حفيد شنجه ولي عهد

ويبدو من خلال هذه المقطوعة أن الشاعر ذو نزعة أموية واضحة .

وقد نال بعض الوزراء نصيبهم من الهجاء لسبب أو لأخر ، فقد كان عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع[4] وزير المظفر عبد الملك ، وصهره وصاحب دولته معروفا بروح الترفع والاستعلاء ، مما دفع الشاعر أبا الأصبغ عيسى بن الحسن[5]، فقال يعرض به ويدعوه إلى التواضع[6] :

وقد ظل جليل القدر إلى وفاته سنة ٤١٣ هـ . انظر ترجمته في : النباهي . المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . المكتب التجاري للطباعة والنشر . بيروت . ص ٨٤ ، الضبي . المصدر نفسه . ١٨٦ ، بن سعيد . المصدر نفسه. ١ : ٢١٥ . ابن عذارى. المصدر نفسه . ٣ : ٤٦ .

(١) ابن الأبار . الحلة السيراء . ١ : ٢٧٢ .

(٢) لم نجد ترجمة له .

(٣) ابن الأبار . الحلة السيراء . ١ : ٢٧٢ .

(٤) هو عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بابن القطاع ، قربه الحاجب المظفر عبد الملك وصاهره وولاه الوزارة ، ولكنه اتهم بمحاولة قلب الدولة والرغبة في تولية الخلافة لهشام بن عبد الجبار بن الناصر المرواني ، فقتله المظفر في مجلس شراب ومنادمة . انظر ترجمته في : ابن بسام . الذخيرة . ١/١ : ١٠٠ ، ١٠٢ ، وما بعدها . ابن سعيد . المغرب . ١ : ٣٠٦ ، ٣١٣ .

(٥) هو أحد شعراء الدولة العامرية ، كان ممن باطن عبد الله بن المنصور ، فلما قتله أبوه وسجن الشاعر أبا الأصبغ ، وله في ذلك شعر . انظر ترجمته في : ابن سعيد . المغرب . ١ : ٢١١ .

(٦) ابن سعيد . المصدر نفسه . ١ : ٢١١ .

أنت عيسى بن سعيد ∴ لست روحَ الله عيسى
كلّم الناس فقد كلـ ∴ ـم رب الناس موسى

لقد تعرض الخليفة هشام المؤيد بالله

يتجلى – مما تقدم من نماذج – زمن الدولة العامرية ، في ظل الخلافة الأموية ، كان هشام المؤيد بالله طفلا صغيرا محجورا عليه ، لا يملك من الخلافة إلا اسمها ، وأمه السيدة (صبح) البشكنسية صاحبة السلطة والنفوذ في تغيير الوزراء ، وما تكنه من عاطفة الإعجاب والمحبة للحاجب المنصور بن أبي عامر ، وكذا كل من عمل من وزراء وقضاة لحساب هذا الحاجب وسبطيه ، قول الشعراء في هذا النوع من الهجاء السياسي الجارح والبذيء في أغلبه .

وإذا تمعنا في لغة الهجاء السياسي ، زمن الدولة العامرية ، فإننا نجدها تتميز بالميل إلى البساطة والشعبية والاقتراب من لغة العامة المستخدمة في حياتهم اليومية ، وتكاد تقترب من النثرية ، كقول أبي حفص في ذم زواج رأى فيه ما لا يرضي الله :

أنت عيسى بن سعيد ∴ لست روحَ الله عيسى
كلّم الناس فقد كلـ ∴ ـم رب الناس موسى

وأما ميل لغة الهجاء إلى الشعبية ، فلكي يضمن لها الشعراء الذيوع والانتشار على ألسنة العامة، فاستخدموا ألفاظ السباب المتداولة لديهم ، وأكثروا ، وقد تقدم على ألسنة بعضهم في وصف المنصور ابن أبي عامر مرة بـ (بالقرد) ومرة بـ (بالثعلب) ، وأخرى بـ (بالأحدب)، وهكذا .

وميزة أخري انفرد بها شعر الهجاء تتمثل في نظمه على شكل مقطوعات ، أو أبيات ، أنشأها أصحابه هكذا لأنهم رأوا فيها وفاء الحاجة ، وضمنوا لها الذيوع والانتشار كما تقدم .